محمد كرد علي و"المعاصرون"

للأستاذ عيسى الناعوري

«المعاصرون»: كتاب للرئيس محمد كرد علي، مؤسس المجمع العلمي في دمشق (مجمع اللغة العربية الآن)، صدر في منشورات المجمع الدمشقي عام ١٩٨٠، وعلّق عليه وأشرف على طبعه الأستاذ محمد المصري. ويقع الكتاب في ٥٤٠ صفحة من القطع الكبير، منها ٤٨٠ صفحة للحديث عن الأعلام، من العرب والمستشرقين، الذين عرفهم المؤلف واتصل بهم، والصفحات الباقية كلها للفهارس والمراجع. وقد صُدّر الكتاب بكلمتين تمهيديتين: الأولى لرئيس المجمع الدكتور حسني سبح، والثانية للأستاذ محمد المصري، المشرف على الطباعة والتحقيق.

من مقدّمة الدكتور حسني سبح نعرف ان المجمع، حينما احتفل سنة ١٩٧٦م بمرور مئة سنة على ميلاد مؤسسه الأستاذ الرئيس محمد كرد علي، كان يودّ «لو ظفر ببعض ما لم يُنشر من آثاره ليقدّمه الى جمهور العلماء والباحثين في تلك المناسبة». . . وبعد الاحتفال قدّم المهندس طريف كرد علي ظرفا يحتوي على أوراق من أوراق والده، وعليه عنوان «المعاصرون»، ترجم فيه المرحوم محمد كرد علي «طائفة ممّن اتصلت أسبابه بأسبابهم من علماء البلاد العربية وأدبائها، ومن المستشرقين. . . وقد كان من هذه التراجم ما نشره الأستاذ في بعض الصحف والمجلات، ومنها ما طبع بالآلة الكاتبة، وأكثره مسودّات بخطّه». فعمد المجمع الى تكليف الأستاذ محمد المصري النظر في هذه الأصول واعدادها للطبع.

ومن كلمة الأستاذ المصري نعلم أنّه قام بعمل المحقّق: من نَسْخ للكتاب، وتصحيح لبعض ما سقط منه من ألفاظ او عبارات، وتعريف لبعض الأعلام والكتب الواردة فيه، وشرح، واضافة هوامش حسبما يقتضيه المقام، وشكل ما يجب شكله من الحروف والكلمات، ووضع الفهارس، وما الى ذلك ممّا يقتضيه تحقيق الكتب. وقد اضاف الى ذلك انه رتّب ورود الاعلام حسب الحروف الهجائية. وبهذا جاء اسم ابرهيم الحوراني الاول في الترتيب، ويليه ابرهيم اليازجي، فأحمد الاسكندري، فأحمد تيمور، وهكذا، وكانت الأسماء الاخيرة هي اسماء: يعقوب صَرّوف، ويوجين غريفّيني، ويوسف هوروفيتز؛ والاسمان الأخيران لاثنين من المستشرقين الغربيين.

ويشتمل الكتاب على ترجمات لسبعة واربعين شخصا من أعلام العرب والمستشرقين الذين عرفهم المؤلف، وكتب عنهم عن معرفة شخصية: العرب منهم سبعة وثلاثون شخصا، والمستشرقون عشرة فقط، بعضهم ـ لاكُلّهم ـ من أصحاب الأسماء المعروفة جيّدا في العالم العربي ومن هؤلاء: كرنيليوس فانديك (اميركي)، اجناس غولدسيهر (مجري) وكارلو نللينو، وليون كائيتاني (ايطاليان). اما العرب فمعروفون جميعهم، ومن اشهرهم الشعراء: احمد شوقي، وحافظ ابرهيم، والبارودي، وخليل مطران، واسماعيل صبري، والعلماء: احمد زكي (شيخ العروبة)، واحمد تيمور، ويعقوب صرّوف (صاحب مجلة المقتطف)، وابراهيم اليازجي، والأب انستاس الكرملي، وغيرهم. والواقع انهم جميعا من ذوي العلم والفضل والأدب: العرب منهم والمستشرقون على السواء، وقد استطاع محمد كرد علي ان يبرز فضل كل منهم، في كتابه هذا، دون تحيّز ولا تحيّف.

بعض فصول الكتاب واضح جدّا أنه كُتب لينشر في مجلّة او صحيفة، وبعضها تعريفات قصيرة ذات صفحتين او ثلاث صفحات فقط. وحين نطالع ما كتبه عن احمد شوقي، والبارودي، واحمد زكي، واسماعيل صبري، واحمد تيمور، ومحمود شكري الألوسي، مثلا، نحسّ بأن فيه دراسة وافية للنشر. ومثل ذلك ما كتبه عن كرنيليوس فان دايك، من المستشرقين. وهذا يدلّ على مدى صلة المؤلف بالأشخاص، ومدى تقديره لفضلهم، واطّلاعه على انتاجهم.

والمؤلف لا يكتب الحسنات فقط، فليس في الدنيا انسان كامل، ولكنه يشير في كثير من الأماكن الى ما قد يكون له من مآخذ، فإذا كان لديه مجال للتبرير او للدفاع عنها، برّرها ودافع عنها، والاّ عرضها وابدى أسفه لها.

وانت تشعر بأنه حين يتحدّث عن عالِم مثل المستشرق كرنيليوس فانديك، فانما يتحدث عنه باعجاب، وتقدير لفضله وعلمه ونزاهته واخلاصه، وحبّه للعرب ولغتهم، الى حدّ أنه يستقيل من الجامعة الامريكية حين يقرّر رؤساؤها أن يجعلوا التدريس فيها بالانكليزية بدلا من العربية.

يقول المؤلف في الصفحة ٣١٢ ـ ٣١٣: «لما أنشئت الجامعة الامريكية في بيروت سنة ١٨٦٦م، عهد اليه تدريس علم الفلك والظواهر الجوية، والباثولوجيا، وشرع يترجم الى العربية ما يلزم الجامعة الجديدة من كتب الطب والعلوم باللغة العربية. وما برح على ذلك حتى بدا لرؤساء الجامعة ان يجعلوا اللغة الانكليزية لغة التعليم بدلا من العربية،فاستقال هو وزميله الدكتور ورتبات احتجاجا على من رجّحوا الانكليزية على العربية، قائلين انهما ما نزلا ارض الشام الا ليخدما العرب، بتدريس العلوم بلغتهم».

ويذكـر المؤلف أن فانـدايك قد كتب باللغة العربية عشرين كتابا في العلوم والفنون، وانه أنشأ مدارس كثيرة في لبنان، وانشأ المرصد الفلكي في الجـامعـة من مالـه الخـاص، وكـان العـامـل الأكبـر في انشـاء مستشفى مار جرجس، في بيروت (ص٣١٣-٣١٤).

ويضيف قائـلا: «وعَـرَف الاحسـانَ لكـلّ انسـان، فأحبّتـه جميع الـطوائف... فَفَضْـلُ فانـدايك على ديارنـا وأهلهـا يُذكـر بالحمـد على الدهر... ولعلّنا لا نعدو الصواب اذا حكمنا على فانـدايك بأن دعوته الدينيّة ذابت في شخصـه، وغلبت عليه النزعة العلمية، وبها ظهر في هذه الديار ظهورا رائعاً.

وهـو يشهـد بأن فانـدايك قد «أحبّ العـرب، فقلّدهم في لبـاسهم وطعامهم وفي كل جميل من مظاهرهم، وعلّم الناس بالقدوة الصالحة».

لقـد عرف محمـد كرد علي فضـل كرنيليوس فانـدايك، الاميركي الجنسية والهولندي الأصل، وقدر علمه وفضله وخلقه، فلم يجد في سيرته الاّ كلّ ما يستحق الحمد والثناء، فشهد له شهادة حقّ ، وأُعجب به اعجاب العالِم بالعالِم، ورَجُل الفضل برَجُل الفضل.

ولم يكن كذلـك كلّ ما كتبه عن جميع المستشرقين الذين عرفهم، والـذين تحـدث عنهم في كتـابـه «المعـاصـرون». لقـد قدر لهم علمهم وفضلهم، فاذا وجد لأي منهم عيبا وتقصيرا، أو اساءة الى العرب والاسلام، لم يكن يكتمه. فهو حين يتحدّث عن المستشرق الفرنسي كليمنت هوار، يقول في الصفحة ٣٠٨-٣٠٩:

«ولقد رأينا الفرنسين ـ على شدّة ذكاء علمائهم ـ يخوضون ابحاثا لا تظهر عليها العناية، كما تظهر عناية الألمان والانكليز والهولنديين في ما احيوا من آثار العرب. ولهذا وقعت للسيد هوار، في كتاب «البدء والتاريخ»، أغلاط كثيرة، ما كان ليسقط فيها لو تروّى في نشره، ولو رجع الى عالم عربي لصحّح معظم هفواته، وصدر الكتاب سليما من العيوب في الجملة».

وقبل ذلك قال فيه، في الصفحة ٣٠٨ عينها: «ونشر في «معلمة الاسلام» تراجم بعض علماء المسلمين الأقدمين بأسلوب مقتضب، لا نسبة بينه وبين ما نشره غيره من المحققين المستعربين في تلك المعلمة، وكانت تراجمه كالفهارس الموجزة، لا تراجم رجال تملأ حياتهم صفحات. وما ترجمه لهم يتيسّر لأي طالب أن يكتب أمتع منه».

وفي تقدير محمد كرد علي لفضل ذوي الفضل، نراه احياناً يُنحي باللوم على الشرقيين، حين يقارن بينهم وبين بعض المستشرقين. ففي ختام حديثه عن المستشرق المجري اجناس غولدسيهر يقول في الصفحة (١٣٦):

«. . . رأيت طريقته طريقة العلماء يعشقون الحقائق ولا يعبأون بما عداها. ولا عجب ان اصبح غولدسيهر مرجع علماء المشرقيّات الاسلامية في ديار الغرب لعهده. . ان الدراسات التي وجّهت اليها همّة غولدسيهر ممّا يعزّ مثله لعالم شرقي: ذلك لأن الشرقيّ بعيد عن الاتقان، يصاب بالملل، ولا سيّما يوم تعرض له مشاكل تحتاج الى أناة طويلة وطول تفكير».

أما في بيان الاشارة الى المساوىء والعيوب في الأعمال العلمية، دون تمييز بين عربي ومستشرق، فحين يتحدث المؤلف عن الأب لويس شيخو، مثلا، فانّه يقول رأيه صريحا في آثاره العلمية والأدبية، وما كانت تصدر عنه من هوى ظاهر. ففي الصفحة ٣١٩ يقول:

«. . . وراعى في كتبه نظام رهبانيّته، فجاءت كتاباته ـ الاّ قليلا ـ أشبه بالدعايات المذهبية منها بكتب علمية مشتركة، تنشق ريح دينه في كلّ ما كَتَب ونَشَر. ولو خَلَت بعض اسفاره ـ وبخاصة «شعراء النصرانية قبل الاسلام وبعده»، و«الآداب العربية في القرن التاسع عشر وبعده» من هذه النزعة، لكانت في الغاية من جودة التأليف، لكثرة مادّته وحسن تنسيقه».

ويضيف الى ذلك في الصفحة عينها: «لم يُرْزَق الفقيد ذوقا عاليا في الأدب العربي، وظلّت كتابته الى أخريات أيامه كما كانت لأول عهده: نَمطاً واحدا، لا تناسب مقدرته على التأليف، ووقوفه على ادب العرب والافرنج وبعض علوم العصر. . . وغريب ممن عاش بين كتب الفصحاء من العرب، ان يظلّ بعد درس خمسين سنة ضعيفا في الانشاء على كثرة ما قرأ وكتب».

الى جانب هذا الرأي الصريح في نقد الأب لويس شيخو، لم يسمح للمؤلف خلقه الا أن يشيد بما له من جهود مشكورة في حقول التأليف والتصنيف، وبفضل مجلّته «المشرق» على النهضة الفكرية العربية.

ان اعجاب المؤلف ـ وقد يبلغ ابعد الحدود ـ ببعض العلماء العرب وبعض المستشرقين، لا يمنعه من ان يقول الحق في اخطائهم. ومن ذلك مثلا انه اعرب عن اعجابه الشديد بالمستشرق الفرنسي ادوار مونتيه، الى حدّ

انه زاره في جنيف ـ كما يقول في الصفحة ١٠٩ ـ وشكره «على حسن ظنه بالاسلام. وقال ان من كتبوا مثله، دون تحزّب، من الاوروبيين قلائل جدا». ثم لا يلبث أن يقول بعد ذلك، في الصفحة ١١٠:

«... حتى اذا تكلّم عن المسلمين في شمالي افريقيا، وفي غيرها من ديار الاسلام التي استعمرها الانكليز والهولنديون وغيرهم، تكلّم بلسان المستعمرين، وأشار على المسلمين ان يخضعوا لمن استعمرهم، وقال: ان فرنسا ساعية في تعليم المراكشيين والجزائريين والتونسيين، على النحو الذي قرأه في ما كتبه كتّاب الاستعمار عنهم... وكان حكمه على الظواهر بما لا يليق بعالم من عياره».

مثل هذه الأحكام يحترمها القارىء، لأنها تصدر عن عالم يعرف اقدار العلماء، ويدرك مواطن الفضل والخطأ في اعمالهم. وهي لا تصدر عن حقد، او تعصّب، او عن رغبة في الاساءة، بل عن أسف وشعور بالألم، لأن الذين صدرت عنهم أناس كان يجب ان يكونوا ارفع وأجلّ قدراً.

وحين يكتب محمد كرد علي عن كبار شعراء عصره، تحسّ بأنه يكتب دراسات للنشر في الصحف، فهو يمدّ الحديث ويطيله، ويكثر من الاستشهاد بالشعر في نماذج متلاحقة كثيرة يكاد لا يفصل بينها الا: «وقال» أو «وقال ايضا»، حتى اذا شبع من ايراد النماذج، مضى يعلّق عليها.

كذلك فعل مع أحمد شوقي، والبارودي، واسماعيل صبري، وحافظ ابراهيم، وخليل مطران، ومعروف الرصافي، وغيرهم. وفي دراسته لكلّ منهم

كان عادلا في أحكامه، وصريحا في قول كلمة الحق. من ذلك مثلا قوله عن احمد شوقي في الصفحة (٦٢):

«وغريب من شاعر هو أسير خياله والهامه في ليله ونهاره، أن يخضع مختارا لهذه القيود الثقيلة، ويشرب قلبه حبّ المظاهر والرتب والأوسمة».

وأيضا: «ان اتصال الشاعر بالخديوي كان منه الهبات والعطايا، ونفوذه في القصر دعا ارباب الغرام بالمراتب والرتب والأوسمة أن يوسّطوه في نيل ما تطمح نفوسهم من الرغائب. فجمع من ذلك ثروة لم يحرزها شاعر في عصرنا وفي كثير من العصور الماضية، ونَعِم بالأطايب في الحياة، وعاش عيش العظماء وأرباب القصور، واستطاع أن يبذل بعض ما يسترضي به من يخدمه...».

وحين يتحدّث عن نثر شوقي (ص٦٣) يقول: «أراد شوقي منذ صباه أن يعاني النثر كما عانى الشعر، وكتب بعض الروايات في آخر أمره، ووضع كتابا أسماه «أسواق الذهب»، فما جوّد في الأول ولا في الآخر، لأن الكتابة لم تسلس له قيادها كما أسلس له الشعر قيادة».

ان النقد الصحيح يتطلب دقة الاحكام، وعدلها، وصراحتها، وجرأتها. وهذا هو النقد الذي يملي على محمد كرد علي أحكامه في كتابه «المعاصرون». فاذا كان قد رأى بعض النقص لدى شوقي، في الحياة وفي الأدب، فسجّل فيه أحكامه العادلة، فانه لم يفعل مثل ذلك في ما كتبه عن أحمد تيمور، مثلا، لا في حياة تيمور، ولا في خلقه، ولا في علمه وادبه. وفي ادب تيمور وعلمه وخلقه يقول محمد كرد علي (ص٤٦):

«كان اماما مدققا في علوم اللغة والبيان، كاتبا نقيّ العبارة، يكتب على أجمل ما يكتب نبغاء المؤلفين: لا تعمّل ولا تصنّع... وغلب عليه التواضع، وتملّكه الحياء...».

وفي الصفحة (٤٥) يقول: «لا اعرف في بلاد العرب رجلا جمع مثل هذه الصفات، وأحبّ العلم هذه المحبّة الشديدة، وخدمه في نطاق طاقته هذه الخدمة. وهو في أصله من طبقة النبلاء وأرباب الثراء، فما أبطرته النعمة، ولا استهواه الغنى والجاه، وراح في كل أدوار حياته يبتعد عن الشهرة...».

ومثل هذا الاعجاب بأحمد تيمور، كان اعجاب المؤلف بابرهيم اليازجي، وأحكامه في علمه وخلقه وفضله. وفي احد المجالات يدافع عنه ويبرئه ممّا اتهمه فيه بعض الناس ممّن قصدوا الاساءة اليه. فقد جاء في آخر الصفحة (١٥) وأول الصفحة (١٦) ما يلي:

«أولع الشيخ (ابرهيم اليازجي) ببلاغة القرآن. حدّثني تلميذه صديقي خليل مطران الشاعر أنه كثيرا ما كان يقول لتلاميذه اذا تصدّوا للكتابة ونشر المقالات، أن يستشهدوا بآيات القرآن ليكون بها رونق لما يكتبون، اوما هذا معناه. فمن كان هذا اعتقاده، لا يُعْقَل أن يطعن ببلاغة الكتاب العزيز وفصاحته، على ما اتهمه بذلك بعض الطوائف من أنه عارض القرآن، وحطّ من شأنه في رسالة له نَحَلَتْه اياها، وما هي الاّ من أقلام بعض دعاتهم».

وقال في علمه وفضله، ص(٢٩): «افنى أيامه في التحقيق والتدقيق: عقل عالم، وحكمة حكيم، وعين فنّان، وذوق شاعر. كان الشيخ مأخوذا بعلمه، مخلصاً له. لم يتعلّق من الحياة بغير المعنويات.».

واذا كان محمد كرد علي قد عظّم صديقه أحمد زكي باشا (شيخ العروبة) وأثنى على علمه ثناء لا مزيد عليه، فقال عنه في الصفحة (٤٩): «ليس على أديم الارض رجل عرف المدنيّة العربية والاسلامية كما عرفها احمد زكي: بذّ في هذا الفرع المسلمين وغير المسلمين»؛ فانه مع ذلك يعيب عليه انه كان «يريد الاستئثار بكلّ شيء، وأن يخوض عباب كل مبحث» (ص٥٣). وروى عنه حادثة أراد فيها أن يستأثر بمبلغ كبير من المال وضعته وزارة المعارف المصرية لمشروع احياء الآداب العربية، وطَبْعِ سبعة وعشرين كتابا من أهم كتب التاريخ والأدب والعلوم القديمة. ولكنه «ابطأ في اخراج العمل، فاستُرْجِع المبلغ الذي كان قد خُصِّص لهذه الغاية». وهكذا خسر احمد زكي المبلغ؛ ولم يسمح بأن يستفيد منه سواه ليقوموا بالعمل، ولم يسمح بخروج المشروع الى التنفيذ؛ وكل ذلك بسبب جشعه.

.....

ولست استطيع ان امضي مع الكتاب، فأتحدّث عمّا كتبه المؤلف حول السبعة والأربعين من الأعلام جميعهم، وانما أردت ان أقدم نماذج من دراساته لهؤلاء الاعلام ومن أحكامه العادلة، المتزنة والجريئة في الوقت نفسه، ومن تقديره لذوي الفضل والعلم.

ومن حق محمد كرد علي أن يكون كتابه هذا بين المراجع المهمة عن هؤلاء الاعلام، ومن حق مجمع اللغة العربية في دمشق أن نزجي له الشكر الخالص على نشره لهذا الأثر الجليل لمؤسسه العظيم الأستاذ الرئيس محمد كرد علي.